المتهمة

أبو المنذر
خليل إبراهيم أمين

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فهذه متهمة هي وأخواقا بما يلي:

إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

إشعال نار الغرائز المنطفئة وتأجيج سعير الشهوة الراكد.

التحريض على ارتكاب جريمة الزنا وفعل خبائث قوم لوط.

حمل الكثير– إلا من عصم الله –على فعل العادة السرية المحرمة.

هذا نذر يسير، وغيض من فيض من جناياهما، وفي عريضة الدعوة أكثر؛ مما يذهب بلب الحليم ويذهل بعقل العاقل. فكم هتكت من ستر عابد؟ وكم فسخت من عزم زاهد؟ وكم أذلت من عزيز؟ وكم كانت سببًا في اختلاط الأنساب بين الأسر؟ وكم جمعت لإنسان بين خزي الدنيا وعذاب الآخرة إن لم يتداركه الله برحمته؟ بل حملت بعضهم عياذاً بالله على ارتداده عن دين الله الحق فكفر بعد إيمانه.

لأجل هذا: وجب على الناصحين هتك سترها، وكشف خبيئها.

قالت المتهمة: مهلا — يا رعاك الله– هذه دعاوي والدعاوي لا تقبل بغير جناية ولا تقام بغير جرم.

قلنا لها: هاكِ طرفًا واحدًا من جناياتك ولو رمت الزيادة زدناك(١).

حكى الثقة أنكِ كنتِ سببًا في حمل شاب صالح إلى الهلكة والبوار فقال: "إن رجلا ببغداد يُقال له صالح المؤذن، أذن أربعين سنة، وكان يُعرف بالصلاح، صعد يومًا إلى المنارة ليؤذن فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتُتِن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له، فلما دخل ضمها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات فما هذه الخيانة؟ فقال: إن وافقتِني على ما أريد وإلا قتلتكِ فقالت: لا، إلا أن تترك دينك، فقال: أنا بريء من الإسلام، ومما جاء به محمد "عياذًا بالله" ثم دنا إليها ،فقالت: إنما قلت هذه لتقضي غرضك ثم تعود إلى دينك فَكُلْ من لحم الخنزير فأكل ،قالت: فاشرب الخمر، فشرب فلما دب الشراب فيه دنا إليها، فدخلت بيتًا وأغلقت الباب، وقالت اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوجني منك، فصعد فسقط فمات، فخرجت فلفته في مسح، فجاء أبوها فقصت عليه القصة، فأخرجه في الليل فرماه في المزبلة".[ذم الهوى لابن الجوزي].

وما لنا نذهب بعيدًا وقد حذرنا العليم الخبير بخطورتك فقال وهو أصدق القائلين: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور: ٣٠] وقال: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١]. ورسول الله ﷺ

(١) للاستزادة: راجع "ذم الهوى" لابن الجوزي.

يقول: «**اكفلوا لي بست أكفل لكم الجنة، إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يُخلف، غضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم**» [حسن، صحيح الجامع (١٣٢٥)].

وحينما سئل رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، قال: «**اصرف بصرك**» [صحيح مسلم ٢١٥٩] أي: حوله بسرعة حتى لا ينقش في القلب شيء.

بل إنه ﷺ حَوَّلَ وجه مَن أَحَّدَ النظر فيما لا يحل له؛ فعن ابن عباس، عن أخيه الفضل قال: «كنت رديف رسول الله ﷺ من جمع إلى منى، فبينما هو يسير إذا عرض له أعرابي مردف له ابنة له جميلة وكان يسايره، قال: فكنت أنظر إليها فنظر إلي النبي ﷺ فقلب وجهي عن وجهها، ثم أعدت النظر، فقلب وجهي عن وجهها حتى فعل ذلك ثلاثًا» [متفق عليه].

وعن علي-رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يا علي، إن لك في الجنة كنزًا، وإنك ذو قرنيها فلا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة**» [مسند أحمد (١٣٧٣)] ومستدرك الحاكم (١٢٣/٣) وغيره.

وقال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ عين زانية**» [الترمذي (٢٧٨٦) والدارمي وأحمد والحديث حسن].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**العينان تزنيان وزناهما النظر**» [مسند أحمد (٨٣٢١)].

ومن أجل تلك الخطورة قال عبد الله بن مسعود لرجل رآه ينظر إلى امرأة: لو انفقأت عينك كان خيرًا لك!

وقال سفيان الثوري في قوله تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٢٨] قال: المرأة تمر بالرجل، فلا يملك نفسه عن النظر إليها، ولا ينتفع بها، فأي شيء أضعف من هذا.

وعن عيسى–عليه السلام –قوله:" إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها لصاحبها فتنة".

وأُثِرَ عن سليمان قوله لابنه:" يا بنيَّ، امش وراء الأسد والأسود [أي: الحية العظيمة] ولا تمش وراء امرأة".

وقال العلاء بن زياد: "لا تتبع بصرك رداء امرأة، فإن النظرة تجعل في القلب شهوة".

وقال الحسن: "من أطلق طرفه طال أسفه".

وقال ذو النون: "اللحظات تورث الحسرات، أولها أسف، وآخرها تلف، فمن تابع طرفه، تابع حتفه".

وعن بعض الحكماء:" أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر". وقد ضرب ابن الجوزي –رحمه الله– مثالاً رائعًا لمن أطلق بصره في الحرام فقال: "إذا رأيت فرسًا قد مالت براكبها إلى درب ضيق فدخلت فيه ببعض بدنها، ولضيق المكان لا يمكن أن تدور فيه، فصيح به: أرجعها عاجلا، قبل أن يتمكن دخولها، فإن قَبِلَ وردها خطوة إلى ورائها، سهل الأمر، وإن تواني حتى وَلَجَت، ثم قام بجذبها بذنبها طال تعبه، وربما لم يتهيأ له؛ وكذلك النظرة: إذا أثرت

في القلب، فإن عجّل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر نقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرغ فنقشها فيه، فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تسقى بها الشجرة، فلا تزال تنهى فيفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به، ويخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات، ويلقى في التلف" [صيد الخاطر].

وقد قال القائل:

يـــا عـــين أنـــت قتلـــتني　　وجعلت ذنبك من ذنـــوبي

وأراك تهـــوين الـــــدمو　　ع كأنهـــا رفـــق الحبيـــب

بـــالله أحلـــف صـــادقًا　　والصدق من شيم الأريب

لو ميزت نـــوب الزمـــان　　من البعيـــد إلى القريـــب

مـــا كـــان إلا دون مـــا　　خبت العيون على القلوب

قلنا: تلك هي عريضة الدعوى، فما دفاعكِ أيتها المحرمة؟

قالت: "ظلمني أولاً وآخرًا، وبُؤْتُ بإثمي باطنًا وظاهرًا وما أنا إلا رسول القلب الداعي إليه، ورائده الدال عليه، والشاعر يقول:

وإذا بعثت برائد نحو الذي　　تهوى وتعشـــقه ظلمـــت

فالقلب الملك المطاع، ونحن الجنود والاتباع، أركبني في حاجته خيل البريد، ثم أقبل عليَّ بالتهديد والوعيد فلو أمرني أن أغلق عليَّ بابي، وأُرخي عليَّ حجابي، لسمعت وأطعت، ولما رعيت في الحمى ورتعت، أرسلني لصيد قد نصبت له حبائله وأشراكه، واستدارت حوله فخاخه وشباكه، فغدا أسيرًا بعد أن كان أميرًا وأصبح مملوكًا

بعد أن كان مليكًا، هذا وقد حكم عليه سيد الأنام وأعدل الحكام- عليه الصلاة والسلام -حيث يقول: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب**» [متفق عليه] وقال أبو هريرة رضي الله عنه:" القلب ملك والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده"؛ ولو أمعنت النظر لعلمت أن فساد الرعية بفساده، وصلاحها ورشدها برشاده، ولكنه هلك وأهلك رعيته، وحمَّل عليَّ [أنا] الضعيفة خطيئته وأصل بليته أنه خلا منه حبُّ الله وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته، وأقبل على غيره وأعرض عنه، وتعوض بحب من سواه والرغبة فيه، هذا مع أنه قد سمع ما قص عليه من إنكاره- سبحانه- على بني إسرائيل استبدالهم طعامًا بطعامٍ أدنى منه فذمَّهم على ذلك ونعاه عليهم وقال: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ [النور: ٦١] فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره ووليه ومالك أمره، الذي لا صلاح له ولا فلاح، ولا نعيم ولا سرور، ولا فرحة ولا نجاة، إلا بأن يوحده في الحب، ويكون أحب إليه مما سواه، فانظر بالله بمن استبدل؟ وبمحبة من تعوض؟ رضي لنفسه بالحبس في الحُش، وقلوب محبيه تجول حول العرش، فلو أقبل عليه وأعرض عمن سواه لرأى العجائب، ولأمن من المتالف والمعاطب، أو ما علم أنه خص بالفوز والنعيم، من أتاه بقلب سليم، ليس فيه غير حبه واتباع رضاه، وما بيني وبين ذنبه عند الناس كما بين عماي وعماه في القيام وقد قال من بيده أزِمَّة الأمور: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ**

وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] [روضة المحبين بتصرف].

تلكم كان دفاع المتهمة عن نفسها وليس بعد قول الله ورسوله لأحد مقال، ومن المعلوم أن من أطلق العنان للحظاته دامت حسراته، و لم تنقطع همومه، ومن عقل عينه وحجر عليها في محجرها كانت له العزة والكرامة والرفعة، وله من الفوائد العظام الشيء الكثير فمنها.

أولاً: تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظراته دامت حسراته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يُريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه، قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهاة، فجعلت أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها فقالت لي: يا هذا، ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتبعتـــك المنـــاظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس، فإن لم يحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

كـــل الحـــوادث مبـــدأها مـــن النظـــر
ومعظم النـــار مـــن مستصـــغر الشـــرر
كم نظرة فتكـــت في قلـــب صـــاحبها

فتـــك الســـهام بـــلا قـــوس ولا وتـــر
والمـــــرء مـــــا دام ذا عــــين يقلبــــها
في أعين الغيـــد موقـــوف علـــى الخطـــر
يســـــر مقلتـــــه مـــــا ضـــــر مهجتــــه
لا مرحبًـــــا بســـــرور عـــــاد بالضـــــرر

والناظر يَرمِي من نظره بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر، فهو إنما يرمي قلبه، ولابن القيم -رحمه الله- أبيات يقول فيها:

يا راميًا بسهام اللَّحظِ مجتهدًا أنت القتيل بما ترمي فلا تُصبِ
وباعثَ الطرف يَرْتاد الشـــفاءَ تَوَقَّه إنـــه يأتيـــك بالعَطَـــبِ

وقال الفرزدق:

تزوَّد منها نظرةً لم تَدَعْ لـــه فؤادًا ولم يَشْعُر بما قد تزوَّدا
فلم أر مقتولاً ولم أر قـــاتلاً بغير سِلاحٍ مثلها حين أقصدا

وقال ابن المعتز:

متيمٌ يرعى نجـــوم الـــدُّجى يبكي عليـــه رحمـــةً عاذلـــهْ
عيني أشاطت بدمي في الهوى فابكوا قتيلا بعضـــه قاتلـــه

ومثله للمتنبي:

وأنا الذي اجتلـــب المنيـــة فمن المطالبُ والقتيلُ القاتلُ

وقال أيضًا:

يا نظرةً نفتِ الرَّقادَ وغادرت في حد قلبي ما بَقِيتُ فلـــولا
كان من الكحلاء سُؤْلي وإنما أجلي تَمَثَّل في فؤادي رسولا

ودخل أصبهان مُغَن فكان يتغنى بهذين البيتين:

سماعًا يا عبــاد الله مــني وكفوا عن ملاحظة الملاح
فإن الحبَ آخــرُه المنايــا وأوَّلــه شــبيةٌ بــالمزاح

وقال آخر يعاتب عينه:

والله يــــا بصـــري الجـــاني علـــى جســـدي
لأطفـــــئن بـــــدمعي لوعــــــة الحـــــزن
تـــالله تطمـــع أن أبكـــي هـــوىً وضـــنىً
وأنـــت تشـــبع مـــن غمـــض ومـــن وســـن
هيهـــات حـــتى نـــرى طرفًـــا بـــلا نظـــر
كمـــا أرى في الهـــوى شخصًـــا بـــلا بَـــدَنِ

وقال آخر:

يا من يرى ســقمي يزيــد وعلــتي أعيــت طبــيبي
لا تعجـــــبن فهكـــــذا تَجنى العيونُ على القلوب

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه، ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥] عقيب قوله: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور: ٣٠] وجاء الحديث مطابقًا حتى كأنه مشتق منه وهو قوله: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نورًا**» الحديث.

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وثمراته وإذا استنار القلب صحت الفراسة لأنه يصير بمنزلة المرآة المجلوة تظهر فيها المعلومات كما هي، والنظر بمنزلة التنفس فيها، فإذا أطلق العبد نظره تنفست نفسه الصعداء في مِرآة قلبه فطمست نورها كما قيل:

مرآة قلبك لا تريك صلاحه والنفس فيها دائمًا تتـــنفَّس

وقال شجاع الكرماني:" من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات وأكل من الحلال لم تخطئ فراسته"؛ وكان شجاع لا تخطئ له فراسة، والله سبحانه وتعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غض بصره عن المحارم عوضه الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته فلما حبس بصره لله أطلق الله نور بصيرته، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض، ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبُه، وأظلم، وانسدَّ عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة؛ وفي الأثر: "إن الذي يخالف هواه يفرق[1] الشيطان من ظله، ولهذا يوجد في المتبع لهواه

(١) يفرق: يخشى ويخاف.

من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه". قال الحسن:" إنهم وإن هملجت بهم البغال وطقطق بهم البراذين[١] إن ذل المعصية لفي قلوبهم؛ أبى الله إلا أن يذل من عصاه". وقال بعض الشيوخ: "الناسُ يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله". ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه قسط ونصيب من فعل من عاداه بمعاصيه؛ وفي دعاء القنوت: "إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت".

الفائدة السادسة: أنه يورث القلب سرورًا وفرحة وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا فإنه لما كف لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرة نفسه الأمارة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم:"واللهِ لَلَذَّةُ العفة أعظمُ من لذة الذنب» ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وههنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة: أنه يُخَلِّص القلبَ من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه فهو كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسير

(١) الهملجة: حسن سير الدابة. والطقطقة: حكاية صوت حوافز الدواب. والبراذين: الدواب مفردها برذون وبرذونة.

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار.

كعصـــفورة في كـــف طفـــل يســـومها
حياضَ الردى والطفـــل يلـــهو ويلعـــب

الفائدة الثامنة: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب ضرِيَ[1] **على المحظور، ولم** تقف نفسه منه عند غاية، فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك للذاتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يقنعه التليد[2]، **وإن كان** أحسن منه منظرًا وأطيب مخبرًا فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة: أنه يقوي عقله ويزيده ويثبته، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب، ومُرْسِلُ النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يفَكِّر ما تجني عواقبه

(١) ضري به أو عليه: لزمه وأولع به، اعتاده وتجرأ عليه.
(٢) التليد: القديم وضده الطارف.

الفائدة العاشرة: أنه يُخَلِّص القلبَ من سُكر الشهوة ورقده الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى عن عُشَّاق الصِّور: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر: ٧٢] فالنظرة كأس من خمر والعشق هو سُكر ذلك الشراب، وسكرُ العشق أعظمُ من سكر الخمر، فإن سُكران الخمر يفيق، وسُكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سكران سكر هــوى وســكر مدامــة

ومـــتى إفاقـــة مـــن بـــه ســـكران؟

وفوائدُ غضِّ البصر وآفاتُ إرساله- أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا وإنما نبهنا عليه تنبيهًا ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلاً إلى قضاء الوَطَر منه شرعًا، كالمُرْدان الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السم الناقع والداء العضال، وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشَّعبي مُرْسَلاً، قال: قدم وفدُ عبد القيس على النبي وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة، فأجلسه النبي ﷺ وراء ظهره وقال: «**كانت خطيئة من مضى النظر**». وقال سعيد بن المسيب: "إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه". وقد ذكر ابن عدي في [كامله] من حديث بقية عن الوزع عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:«نهى رسول الله ﷺ أن يحد الرجل النظر إلى الغلام الأمرد»، وكان إبراهيم النخعي وسفيان الثوري وغيرهما من السلف ينهون عن مجالسة المرْدان، قال النخعي: "مجالسهم فتنة وإنما هم بمنزلة النساء". وبالجملة فكم من مرسل لحظاته رجع بجيش

صبره مغلولاً، و لم يقلع حتى تشحَّط بينهم قتيلاً.

يا ناظرًا ما أقلعت لحظاتـــه حتى تشحط بينهن قتـــيلا

[نقلا عن روضة المحبين لابن القيم،بتصرف].

لأجل هذا وغيره حكمت المحكمة بالحجر على المتهمة في محجرها طاعة لله ورسوله، إلا فيما ينفع المرء في أمر دينه ويُقَرِّبه من مولاه.

وكتبه الفقير إلى رحمة خالقه

خليـــل بن إبراهيـــم أمين